سؤال النهضة
في مشروع التجديد عند
محمد إقبال (١٨٧٧ – ١٩٣٨م)

دكتور/ محمد السيد الجليند(*)

يعتبر محمد إقبال من الشخصيات التي تمثل علامة فارقة في تاريخ باكستان الحديث؛ ذلك أن إقبال من المفكرين الموسوعيين الذين تلتفي بهم في مجالات متعددة من مجالات الفكر الإنساني، فلقد ترك بصمة واضحة في تاريخ باكستان الحديث سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، فهو معلم من معالم الثقافة الباكستانية، بحيث لا تخطئه أقلام المؤرخين لحركة البعث الثقافي في شبه القارة الهندية، كذلك يمثل إقبال معلمًا مهمًا في تاريخ باكستان السياسي والاجتماعي فلقد تزعم أكبر حزب سياسي كان حجر الزاوية في تأسيس باكستان الحديثة، وهو أول من نادى بتأسيس وحدة إقليمية للمسلمين في القارة الهندية، ويعدُّه مؤرخو الحضارات أحد الشخصيات البارزة المؤثرة في تاريخ الحضارة الباكستانية التي ينسب إليها تاريخ باكستان المعاصر، فيقال: عصر محمد إقبال كما يقال في تاريخ اليونان عصر سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكما يقال في تاريخ أوربا عصر كانط وديكارت، وهذا يدل على الآثار الكبيرة التي تركها تاريخ محمد إقبال في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية على الحياة بصفة عامة في باكستان الإسلامية.

من هنا تصعب الكتابة عن محمد إقبال؛ لأن الكاتب لابد أن يتساءل قبل أن يكتب عن أي جانب من هذه الجوانب ـ وكلها مهمة ـ سيكتب، وعن أي فكرة من أفكاره يتناولها بالتحليل؛ خاصة إذا كانت كتابات إقبال مازال الكثير منها لم يترجم إلى اللغة العربية، كما أن أسلوبه يعلوه المسحة الفلسفية أحيانًا، وأحيانًا نجده سابحًا في بحور التصوف والخيال الرمزي الذي استقاه من الأدب الفارسي، وكتابات إقبال هي من هذا الطراز الذي يحتاج إلى تعدد القراءة قبل أن تكتب، ويحتاج إلى تأمل في القراءة قبل أن تحلل وتستنتج الرأي الذي يميل إليه ويدافع عنه.

نشأ محمد إقبال في عصر مزدحم بالمشكلات الكبرى التي كان لها أثرها في توجيه المفكرين والتأثير في مسيرتهم الحياتية، حفظ القرآن الكريم صغيرًا، وتلقى علومه الأولية على يد والده وفي مكتب القرية، وأخذ العلوم العربية والإسلامية عن علماء الهند وباكستان، وفي مقتبل سن الشباب ارتحل إلى أوربا، فدرس القانون في انجلترا، ثم ارتحل إلى ألمانيا حيث درس الفلسفة بها، وفي هاتين

(*) أستاذ العقيدة والفلسفة ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.

الرحلتين تعرف على ثقافة الغرب وعلومه، كما درس المذاهب الفلسفية المختلفة، وتعرف على تاريخ الحضارة الغربية، وعرف أصولها ومصادرها الإسلامية، كما تعرف على تاريخ الحضارة اليونانية وعرف مصادرها الشرقية، ومما لفت نظره في هذه المرحلة من حياته الثقافية ما وجده من فوارق كبيرة بين حضارة الغرب وتقدُّمه وما كان عليه العالم الإسلامي من جمود وتخلف، وزاد في دهشته هذا البون الشاسع بين مستوى التقدم الذي عليه الغرب ومستوى التخلف الذي عليه الشرق؛ خاصة بعد أن تأكد أن حضارة الغرب وعلومه قد أخذها عن العالم الإسلامي باعترافهم أنفسهم.

لقد شغلت هذه القضية جانبًا كبيرًا من حياة إقبال، وتكرر السؤال كثيرًا في كتاباته: لماذا تأخَّر المسلمون، وتقدَّم غيرهم، كما شغل غيره من مفكري عصره. غير أن منهج إقبال وتناوله للقضية قد يختلف كثيرًا عن منهج غيره من المفكرين، فلقد نادى غيره وكتب بضرورة تقليد الغرب والتخلُّص من الغيبيات إذا أردنا أن ننهض كما نهض الغرب، وصرَّح سلامة موسى بذلك في مصر[1]، ونادى طه حسين وكتب عن مستقبل الثقافة في مصر أنه لا أمل في النهضة إلا إذا أخذنا بمنهج الغرب وثقافته، وحذونا حذوه تمامًا، فنأكل كما يأكلون، ونلبس كما يلبسون[2].

لكن محمد إقبال يختلف منهجه في التجديد والنهضة عن ذلك، تمامًا، فلقد تعرف إقبال على مصادر القوة وعوامل النهضة التي سادت الحضارة الإسلامية في القرون الأولى للهجرة، وكيف كانت اللغة العربية هي لغة العلم والفلسفة والفكر حتى القرن الثالث عشر الميلادي. وإن أهم هذه الأسباب يرجع إلى تمثُّل المسلمين لمنهج القرآن في سلوكهم وإحياء روح القرآن في حياتهم وقلوبهم، وكانت حضارة المسلمين تسير في القرون الأولى على قدمين ثابتين: قدم يمثل تمسكهم بالشريعة علمًا وعملًا، وقدم يمثل تطبيقهم لأوامر القرآن الكريم في الاهتمام بعالم الشهادة والعلوم الكونية، فأنتجوا لنا مؤلفات في الطب والكيمياء والفلك والتشريح والبيطرة . . الخ.

ومنذ أن أهمل المسلمون هذه المجموعة من العلوم وانشغلوا بخلافاتهم المذهبية تأخروا وتقدم غيرهم، وجمدت عقولهم على التلقين، ونهض غيرهم بالاختراع والابتكار. وهذا الأمر قد شغل حياة إقبال ونادى بضرورة تجديد الفكر الإسلامي، وسوف نتناول تجربته في ذلك من خلال كتابه تجديد الفكر الديني فقط.

(١) انظر: ما هي النهضة، لسلامة موسى.

(٢) انظر: مستقبل الثقافة في مصر.

١- الوعي الديني عند إقبال:

لقد كتب إقبال في معظم فروع الثقافة الإنسانية، فكتب في القا ون وفي الفلسفة والمنطق فضلًا عن قريحته الشاعرة التي أنتجت العديد من دواوين الشعر، ومع كثر كتاباته شعرًا ونثرًا إلَّا أننا نجد لديه قاسمًا مشتركًا بين كل مؤلفاته وهو يقظة الوعي الديني وقوته، أحيانًا يعبر عن هذا الوعي شعرًا، وأحيانًا في المحاضرة والندوة والكتاب المؤلف، ولا يخطئ الدارئ لمؤلفات إقبال هذه اللغة الصوفية ذات الحس المرهف التي تغوص في أعماق النفس والشعور لوجداني؛ ليجسد بها أفكاره كما يعيشها المرء في قراره نفسه، وهذه الطريقة في الكتابة لا تفارق أعمال قبال إلا في القليل النادرة، فقد تحدث عن الشعور والتجربة الشعورية كعالم نفسي متميز خبير بأحوال النفس وحالاتها، بحيث يجعل من التجربة الشعورية مصدرًا من مصادر المعرفة تمامًا كما هو الحال في التجربة الحسية.

ومصطلح التجربة الشعورية عند إقبال يساوي تمامًا التجربة الدينية في أصولها وفي مصادرها؛ بل يصل به الأمر أحيانًا أن يجعل التجربة الشعورية نوعًا من الوحي المعرفي.

كان إقبال صاحب حس ديني مرهف، ويمتلك وعيًا دينيًا جعله مؤهلًا للوقوف على مقاصد القرآن وغاياته من التذكير بعالم الشهادة كآية من آيات الله الدالة عليه. وكان اطلاعه على الثقافات الأخرى نافذة كبيرة أدرك من خلالها الفارق الأكبر بين منهج القرآن في المعرفة ومنهج المدارس الأخرى خاصة المدرسة اليونانية التي اشتهر بها مفكرو الإسلام في أول عهدهم. لقد ساعده يقظة الوعي الديني أن يلتقط مواضع الاتفاق والخلاف بين الحضارة الإسلامية من مصادرها وأصولها وغاياتها والحضارات الأخرى؛ ليضع أمام أعيننا ما يتميز به منهج القرآن عن غيره من مناهج المعرفة في المدارس الفلسفية حول تأسيس اليقين، لقد عاصر إقبال عددًا كبيرًا من مفكري عصره الذين شغلوا بوضع الأمة الإسلامية وأسباب تخلفها أمثال الأفغاني ومحمد عبده في مصر، والكواكبي وعبد الله النديم ومالك بن نبي في شمال إفريقيا، والمودودي في الهند؛ لكن لم نجد بينهم مَنْ محَّص القضية بشكل نقدي مقارن كما فعل إقبال في كتابه «تجديد لفكر الديني» الذي وضّح فيه معالم مشروعه في التجديد والعودة إلى ما كان عليه أصحاب القرون الأولى من الجمع بين العلم والعمل، وتطبيق المنهج القرآني الذي جعل البحث في عالم الشهادة مدخلًا علميًا للإيمان بعالم الغيب وبرهانًا يقينيًا على وجوده. وقد جعل إقبال مدخله إلى تطبيق مشروعه في التجديد إعادة النظر في ثلاثة قضايا ورثناه في تراثنا كانت من بين أسباب إعاقة النهضة والسير في طريقها الذي كانت عليه في القرون الأولى.

القضية الأولى: قضية المعرفة وفلسفته في تأسيس اليقين؛ لقد أسس إقبال مشروعه في النهضة على نظر جديد في الفكر الفلسفي السائد بين علماء الكلام والفلاسفة المشاءين، فقد انتقل من الحديث عن أدوات المعرفة الحسية الظاهرة باعتبارها مصدرًا للمعرفة ومحل إجماع بين جميع المفكرين إلى الحديث عن الحواس الباطنة وأثرها في تأسيس اليقين المعرفي، فتحدَّث عن التجربة الشعورية ودورها في المعرفة وأنها أكثر أثرًا في تأسيس اليقين من غيرها، ولقد أخذ هذه الفكرة من حديث القرآن عن القلب والبصيرة والفؤاد، وبيّن أنها كلها حواس باطنة تمثل ركائز في بناء المعرفة الخاصة بصاحبها وقد يعجز المرء أحيانًا عن التعبير عنها أو نقلها إلى الغير أو البرهنة عليها. لكنه لا يشك في قيمتها المعرفية بالنسبة له، وأنها مصدر أمن وأمان بالنسبة له ولما يعتقده، ولا يضره في ذلك أن تنكر لها غيره، فرفضها أو نال من قيمتها، ولا يغيب عن إقبال حديث القرآن عن هذه الأدوات المعرفية الباطنة وأثرها في بعث الأمان في قلبه. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهذه المعرفة القلبية يؤسس عليها إقبال موقفه التجديدي في إعادة بناء نظرية جديدة في المعرفة يمكن أن تنسب إليه حيث تناول التجربة الشعورية بالحديث تفصيلًا لما لها من أهمية في المعرفة اليقينية بما وراء الحواس. وهي لا تخطئ صاحبها في تحقيق الأمان له عكس الحواس التي قد تؤدي وظيفتها الحسية بشكل ظاهري؛ لكنها لا تؤدي وظيفتها الإدراكية، قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٨]. لقد انطلق إقبال من حديث القرآن عن أهمية المعرفة القلبية التي فضل التعبير عنها بمصطلح التجربة الشعورية؛ ليؤسس موقفًا جديدًا في بناء المعرفة كما تحدّث القرآن عنها، معرفة بالكون، معرفة بالله، معرفة بالإنسان، معرفة بعلاقة الله الخالق بالكون المخلوق، ومعرفة بوظيفة الإنسان في الكون كما رسمها القرآن. إن هذه التجربة الشعورية في المعرفة عاشتها القرون الأولى، فجمعوا بين أدوات المعرفة الحسية والقلبية بشكل تكاملي، يتكامل فيه وظيفة الحواس الخمس المسلطة على عالم الشهادة مع وظيفة الحواس الباطنة التي تؤسس القضايا القلبية والقوانين العامة والنظريات العلمية بناءً على ما تقدمه الحواس الخمسة من معارف عن عالم الشهادة، وفي هذه النظرة الجامعة بين حواس الإنسان الظاهر منها والباطن تتكامل بنية الإنسان. ويكون حديث القرآن عن هذه القضية شاملًا لبنية متكاملة في الإنسان، عبَّر عنها القرآن بلفظ «التسوية» في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧]، ومصطلح التسوية من الكلمات الجامعة التي تحتاج إلى شرح وتفصيل عن النفس وأدواتها وجنودها الظاهر منها والباطن في الجسد، ووظائف كل أداة

من أدواتها في تحصيل المعرفة الظاهر منها والباطن على سواء... ويؤكد إقبال نظريته هذه بالحديث المتكرر عن «الفؤاد» الذي جاء بعد ذكر السمع والبصر في القرآن الكريم كثيرًا، فإن حديث القرآن عن أدوات المعرفة كان جامعًا بين السمع والبصر إشارة إلى الحواس الظاهرة، ثم يردفها بالفؤاد إشارة إلى الحواس الباطنة، وإن وظيفة الحواس الظاهرة مقدمة طبيعية لأداء وظيفة الحواس الباطنة، فهما يرتبطان ويتكاملان تكامل المقدمات الصادقة مع نتائجها.

هذه النظرة التكاملية لبنية الإنسان الجامعة بين وظائف الإدراك الحسي منها والباطني ينطلق منها إقبال؛ ليتعرف على منهج القرآن في بناء المعرفة بعالم الشهادة، وعلاقة ذلك بعالم الغيب. إن أول آية نزلت من القرآن الكريم أمرت الرسول بأن يقرأ الكون قراءة علمية؛ ليتعرف على الخالق وصفاته وعلاقته بالكون وما فيه. قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢]. والقراءة المطلوبة هنا هي قراءة الكون الذي خلقه الله، وأن تكون القراءة باسم ربك، وليس باسم الدهر كما قال الدهريون، ولا باسم الطبيعة كما قال الطبعيون، ولا باسم الصدفة كما قال العبثيون؛ ولكن القراءة تكون باسم ربك، ولفظ الرب هنا مقصود لذاته؛ لما يتضمنه من معاني التربية والتعهُّد والقيومية بخلاف لفظ الجلالة «الله». وهذا كان موائمًا للموقف الذي كان يعيشه الرسول ﷺ في غار حراء؛ حيث كان يعيش حالة من التأمل والنظر في آيات الله، كان يقرأ الكون كما كان يبدو له.

إن قراءة الكون في مشروع إقبال النهضوي تمثل صلاة وعبادة وذكر الله عاشها الرسول ﷺ قبل أن ينزل عليها الوحي، وعاشها الرسول ﷺ حين نزل عليها الوحي. وجاء القرآن آمرًا بها قارنًا بينها وبين ذكر اله بلسان المقال؛ ليجمع المسلم في عبادته بين عبادة المقال وعبادة الحال. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فذكرت الآية أن التأمل في خلق السموات والأرض وما فيها وما عليها عبادة مقصودة لله، تمامًا كما أن ذكر الله عبادة مقصودة لله.

إن إقبال يقدم مشروعه في خطوات يرتبط بعضها ببعض في شكل تكاملي، فيجعل من عالم الشهادة مرآة للعقل البشري، يقرأ فيها، ويقرأ منها [على قدر استطاعته] ما يؤسس بناءه المعرفي في إثبات الخالق وإثبات صفاته، وعلاقة الخالق بالمخلوق إيمانًا منه أن المعرفة الحسية أصدق دلالة على المطلوب وهي الخطوة الأولى في بناء المنهج العلمي، ويقدم إقبال أدلته القرآنية على صدق قضيته،

فيسوق العديد من الآيات القرآنية التي تكلف الإنسان بإعمال عقلي في عالم الشهادة بحثًا واكتشافًا للقوانين بدأً من الخلق الأول للإنسان مرورًا بعالم الحيوان والنبات والأفلاك. ويسوق القرآن الكريم هذه الآيات في صيغة الأمر المتضمن معنى التوبيخ على إهمال هذا الأمر وعدم تنفيذه، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت: ٢٠]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧-٢١]، ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٦-١١]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. ولقد تكرر ذلك في القرآن كثيرًا..

هذا المنهج القرآني في بناء المعرفة يعتمد على الحواس التي ترفد العقل بمعارفها ليؤسس منها قضايا كلية يقر بها الواقع الذي يعيشه.

هذا المنهج يؤسس به القرآن المنهج الاستدلالي القائم على الملاحظة والتجربة، يقدّم إقبال هذا المنهج في مواجهة المنهج اليوناني الذي اشتهر به الفلاسفة المشاءون وعلماء الكلام في أول أمرهم، هذا المنهج القائم على النظر العقلي التأملي المجرد الذي لا علاقة له بالواقع، فتأثر به الفارابي وابن سينا وعلماء الكلام، وحاولوا أن يفهموا القرآن في ضوئه، فأخفقوا في ذلك، وكان مآلهم الفرقة والتشتت، ولم يجمعهم في ذلك جامع.

لقد كان المسلمون خلال القرون الأولى يسيرون على المنهج القرآني الجامع بين العلم والعمل إيمانًا منهم بأن القرآن يهتم بالعمل قبل الرأس[1] قال أبو عبد الرحمن السلمي: كنا نتعلم العشر آيات من القرآن ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل.

(١) تجديد الفكر الديني

وعلى هذا النحو كان المسلمون في القرون الأولى. ثم نبتت جذور الفتنة بالرأى الوافد من الحضارة اليونانية متمثلًا في آراء أرسطو في الإلهيات والمحرك الأول؛ حيث فتن بها المسلمون لما رأوه من آراء اليونان في العلوم الطبيعية وكثرة ما فيها من صواب، ظنوا أن آراءهم في الإلهيات صحيحة كذلك، وفهموا في ضوئها القرآن الكريم، وصرفوا بذلك الكثير من علماء الأمة عن المنهج القرآني الذي يبدأ من عالم الشهادة وليس من النظر العقلي المجرد ... ومازال الأمر مستمرًا حتى تأثر بذلك علماء الكلام، فتكلموا في مسائل العقيدة وهم متأثرون بالمنهج اليوناني، فوقعوا في الخلافات المذهبية التي مازال المسلمون يكتوون بنارها إلى اليوم.

إن إقبال يجعل البداية التاريخية لانصراف المسلمين عن منهج القرآن في بناء المعرفة مرتبطًا بالآثار التي تركتها المناهج اليونانية في الثقافة الإسلامية، لأن الموقف اليوناني يختلف تمامًا عن الموقف القرآني، وبالتالي فإن أسس الحضارة التي يريدها القرآن تختلف عن أسس الحضارة اليونانية من وجوده عديدة:

١- فالحضارة الإسلامية التي يؤسسها القرآن الكريم قائمة على عقيدة التوحيد الخالص لله ربًّا خالقًا وإلهًا معبودًا. والحضارة اليونانية ليست كذلك.

٢- الحضارة الإسلامية مؤسسة على الإيمان بوحدة الأصل الإنساني، كلهم لآدم وآدم من تراب، والحضارة اليونانية ليست كذلك.

٣- الحضارة الإسلامية مؤسسة على وحدة المصير ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ووحدة القانون الحاكم مصدره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والحضارة اليونانية ليست كذلك.

٤- الحضارة الإسلامية مؤسسة على الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة. واليونانية ليست كذلك.

٥- أنها تجمع في مقاصده وغاياتها بين الدين والدنيا ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧] واليونانية ليست كذلك.

هذه الأمور التي تمثل اختلافًا كبيرًا بين منطلقات الموقف المعرفي المؤسس للحضارتين كان لابد أن تختلف معه المواقف للمفكرين الذين رأوا التوفيق بين المنهج اليوناني والمنهج القرآني، وباءت محاولتهم بالإخفاق.

ولم يتنبه المسلمون إلى خطورة هذا الموقف إلا في القرن الخامس للهجرة، فكتب الغزالي كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة» بيّن فيه تهافت المنهج اليوناني على يد ابن سينا والفارابي عن إفادة اليقين في الإلهيات، ثم جاء ابن تيمية في القرن الثامن فبين تهافت منطق أرسطو الذي كانت تتعبد به أوربا في العصور الوسطى، وقال عبارته الشهير: إن هذا المنطق لا يستفيد منه الذكي ولا يستضر بجهله الغبي. وألّف كتابه «نقض المنطق» يبين فيه أن أصول أرسطو في القياس وفي الحد (التعريف) لا تقدّم جديدًا ولا تؤسس يقينًا.

ووضع ابن حزم رسالته في «التقريب لحد المنطق» بيّن فيها أن الحس والمعرفة الحسية أصدق دلالة على مطلوبها من المنهج اليوناني.

يعتبر إقبال هذه الفترة التاريخية التي انصرف المسلمون خلالها عن منهج القرآن بداية تاريخية لمسار الحضارة الإسلامية نحو الجمود والتوقف عن مسارها الطبيعي. في الوقت الذي انتقل فيه المنهج الإسلامي في المعرفة إلى أوربا خلال الأندلس وصقلية والحروب الصليبية، ففهموه ووعوه ونموه وطوروه، وتوقف المسلمون حيث كانوا في القرن السادس الهجري إلى الآن.

إن نهضة الغرب ـ كما يراها إقبال ـ يمتد نسبها التاريخي إلى أصول عربية إسلامية. فلماذا نمت جذور هذه الحضارة وتطورت في الغرب؟ ولماذا جفت جذورها وجمدت في الشرق؟ هذا السؤال كان الهم الأكبر الذي شغل إقبال كما شغل غيره من كبار مفكري عصره؛ لكن إجابة إقبال على هذا السؤال تحمل معها الوعي الديني الذي يتمتع به فكر إقبال، فيجسد إجابته أن انصراف المسلمين عن منهج القرآن في بناء المعرفة الاستدلالية كان بداية تاريخية لهذا الجفاف الذي أصاب جذور حضارتنا، فتوقفت عن النمو والازدهار.

ولذلك نادى إقبال بضرورة العودة إلى منهج المعرفة الذي نبهنا إليه القرآن، ذلك المنهج الجامع بين الحس الظاهر والباطن، الذي يبدأ منه الاستقراء والاستنتاج، عودة إلى الدين في أصوله وفروعه، وأعلن شعاره مجسدًا في عبارته الشعرية «إنه لا دينا لمن لا يحي دينًا، ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها سبيلًا».

إن انصراف المسلمين عن منهج القرآن واستبداله بمنهج يختلف عنه في أهدافه وغايته، ويختلف عن منهج القرآن في مصدره وأصوله لابد أن يؤدي بهم إلى طريق آخر لا ينصر دينًا ولا يحقق هدفًا. وهذا ما آلت إليه مسيرة الثقافة الإسلامية في وقتنا الحاضر؛ ولذلك فقد حدد إقبال

دعوته في التجديد إلى العودة إلى منهج القرآن والأخذ عنه والعمل على تحقيق أهدافه في الجمع بين العلم والعمل وإحياء روح القرآن في القلوب لتنعكس على الجوارح في السلوك، وما لم تكن معاني القرآن حية في قلوب المسلمين كان عمل الجوارح لا تحيى دينًا ولا تنهض بمستقبل، وإنما تكون نفاقًا لحاكم أو رياء للمجتمع. وهذا ما جعل إقبال يصرّح في مقدمة كتابه بأن اهتمام القرآن بالعمل قبل اهتمامه بالرأي[1].

لقد اعتبر إقبال قضية الاستعداد الفطري للمعرفة قد شاعت، وسائلها بين جميع الكائنات بحيث يتعرف كل كائن خلقه الله على وسائله الخاصة به التي يسلك بها طريقه في تحقيق وظيفته الوجودية، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان والنبات، ومن اللافت للنظر أنه يجعل ذلك الوحي الخاص بالكائنات لتقوم بوظيفتها دون تدخل خارجي.

فالنبات خلقه الله وفطره على معرفة كيف يستقي غذائه من التربة ليستقيم عوده ويؤتي أكله. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

والحيوان خلقه الله على نحو يعرف معه كيف يؤدي وظيفته دون خلل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

والحشرات خلقها الله تعالى على نحو تعرف معه كيف تؤدي وظيفتها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[النحل: ٦٨-٦٩]

والإنسان كذلك خلقه الله على نحو يعرف معه كيف يقوم بدوره في الوجود ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

هذه الكائنات تمثل عند إقبال آيات الله الكونية أوحى إليها خالقها بأن تؤدي وظائفها بمقتضى خلقتها على هذا النحو، أما الإنسان فإنه آية الله الكبرى لما خلقه الله فيه من نفس جمعت بين آيات الله الأفقية وآياته لنفسه؛ ولذلك فقد جعلها القرآن قسيمة الوجود كله، فقوله تعالى:

(١) تجديد الفكر الديني ص ١.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فجعلها قسمًا مستقلًا في مقابلة الأفاق الكونية كلها.

لذلك أقسم بها في سورة الشمس بعد أن عدّد آيات الله الكونية، وأفردها وحدها بقسم خاص لأهميتها فقال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٧].

فالوحي المعرفي عام وشامل في جميع الكائنات، أما الوحي الرسالي فخاص بالرسل والأنبياء فقط، والوحي عند إقبال وظيفة وجودية عامة في كل الكائنات؛ لكنها تختلف من كائن إلى آخر حسب وظيفة الكائن الوجودية؛ لذلك فإن إقبال يجعل من عالم الشهادة مسرحًا يعمل العقل الإنساني فيه استجلاءً لآيات الله وكشفًا عن قوانين الكون التي تمثل كلمات الله الكونية التي عبّر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ويرى إقبال أن انصراف المسلمين عن النظر الكوني هو انصراف عن منهج القرآن، وأن إشارات القرآن المتكررة إلى عالم الشهادة وما فيه من آيات يعتبر أمرًا إلهيًا يمثل فريضة غائبة عن حياة المسلمين، وإن ذلك كان سببًا حقيقيًّا في جمود الثقافة الإسلامية على منهج اليونان الذي جمد بدوره في حياة المسلمين على مجرد النظر التجريدي الماثل في مؤلفات الفلاسفة والمتكلمين[1].

يقول إقبال: إن دعوة القرآن إلى عالم الحس والاستشهاد به، وما يقترن به من إدراك لما يراه القرآن من أن الكون متغير في أصله، متناهٍ قابل الازدياد، كل ذلك انتهى بمفكري الإسلام إلى مناقضة الفكر اليوناني بعد أن كانوا قد أقبلوا عليه، ووثقوا به في باكورة حياتهم العقلية».

إن المنهج القرآني في المعرفة التجريبية قد اعتبره إقبال أساس العلم التجريبي الذي وضع أسسه في الملاحظة والتجربة كل من البيروني وابن حيان وابن الهيثم والرازي والكندي، وعبر إلى أوربا، فتربى عليه روجر بيكون على يد المعلمين العرب، والقسم الخامس من كتابه في البصريات هو نسخة من كتاب المناظرات لابن الهيثم، وكتاب بيكون في جملته شاهد على تأثر بيكون بابن حزم[2].

(١) انظر التجديد في الفكر الديني ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) انظر: التجديد في الفكر الديني ص١٤٨ - ١٤٩ .

٢- أثر المنهج الإسلامي في نهضة أوربا:

من القضايا التي اهتم بها إقبال إثبات أن المنهج التجريبي الذي نهض به الغرب إسلامي المصدر قرآني الأصل، وأن شهادة مفكري أوربا خير دليل على أن النهضة الأوربية ترتبط بالمنهج العلمي، وليست لها علاقة بالدعاوى الكاذبة التي تقول بأن أوربا تخلصت من المسيحية، فتقدمت، وإذا أراد الشرق أن يتقدم فعليه أن يفعل ما فعلته أوربا، فيتخلص من الإسلام كما تخلصت أوربا من المسيحية. هذه الأكذوبة روّج لها العلمانيون في الشرق، في مصر وفي لبنان وفي سوريا وفي تركيا، وكان اهتمام إقبال أن يوضح زيف هذه الأكذوبة، ويوضح أن للنهضة أسبابها وللتخلف أسبابه، فمن أخذ بأسباب النهضة ووعاها تقدّم بها، وليس بالتخلص من عقيدته كما يدعي العلمانيون. ويقدّم إقبال شهادة مفكري أوربا التي يثبت بها أن علوم المسلمين كانت سببًا في تقدُّم أوربا، ينقل إقبال فقرات من كتاب «بناء الإنسانية» لمؤلفه «بريفولت» يقول: إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على أحد معلميه العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه (يقصد فرنسيس بيكون) الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولًا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل من تكرار أن تعلم العلوم العربية هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي لون من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية.

ولقد كان المنهج التجريبي العربي قد انتشر في عصر بيكون، و نكب الناس على تعلمه في ربوع أوربا[١].

ويقول في موضع آخر: لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية ... وإن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية كانت لها آثارها في بعث باكورة الإشعاع الحضاري في أوربا [٢]... وليس في أوربا ناحية من نواحي الازدهار الحضاري إلا يمكن إرجاعها إلى أصل عربي وإسلامي بصورة قاطعة[٣].

ويشير هذا المؤرخ إلى أن العالم القديم لم يكن يعرف من العلم التجريبي شيئًا، وعلم الفلك والرياضة اليونانية لم يكن لليونان علم بها قبل رحلاتهم إلى الشرق؛ لأن البحث التجريبي والملاحظة

(١) انظر: التجديد في الفكر الديني ص ١٤٩.
(٢) ص٢٠٢.
(٣) ص ١٩٠.

الدقيقة لم يعرفها المزاج اليوناني ... وأول نقطة تلاحظ في روح الثقافة الإسلامية أنها في سبيل المعرفة تجعل المحسوسات أصلًا للمعرفة وسلطة العقل المحسوس تجعله قادرًا على الانتقال من المحسوس إلى اللامحسوس لإثبات عالم الغيب.

لم يكن اهتمام إقبال بالحديث عن أثر الحضارة الإسلامية في نهضة أوربا مقصودًا لذاته، وإنما ليثبت به أمرين مهمين جدًّا:

الأمر الأول: أن للنهضة أسبابها وفي مقدمة هذه الأسباب العلم ثم العلم والمنهج العلمي. وأن هذا أمر قرآني أخذ به المسلمون في القرون الأولى، فتقدموا به.

الأمر الثاني: أن نهضة أوربا لم يكن بسبب تخلصها من عقيدتها الدينية التي يروج لها العلمانيون، وإنما كان ذلك لأخذها بأسباب النهضة وهو العلم والمنهج العلمي الذي أخذوه عن المسلمين.

٣-قضية الخلق بين منهجين:

ولقد كان من الآثار السلبية التي نقلها المسلمون عن المنهج اليوناني القائم على التأمل النظري التجريدي البعيد عن الواقع الحسي. موقف الفلاسفة المسلمين من الخلق وتفسيرهم للخلق الإلهي بنظرية الجوهر الفرد وعلاقته بالأعراض المقارنة له، ولقد بدأ موقفه النقدي بمناهج الفلاسفة فتناول دلتهم التى قدموها برهانًا على وجود كائن لا متناهي وراء العالم، وبيّن ما فيها من قصور، ولم تكن أدلة المتكلمين عنده أسعد حظًّا من أدلة الفلاسفة؛ حيث كانت متأثرة بالمنهج اليوناني التجريدي إلى حد كبير. ويشرح ذلك بالتفصيل، فيقول:

«يعتمد المنهج الفلسفي في إثباته لوجود الله على ثلاثة أدلة:

١ - الدليل الكوني الذي ينظر إلى الكون باعتباره معلولًا لعلة يتسلسل في مجموعة من العلل، يتصل بعضها ببعض إلى أن تنتهي إلى علة أولى لا علة لها، وهذا الدليل يتحفظ عليه إقبال؛ لأنه على أحسن تقدير يعطينا مجموعة من سلسلة غير متناهية من علل متناهية. وهذا إهدار لقانون العلية نفسه الذي يصدر عنه الدليل[1].

٢ - **الدليل الغائي.** يرى إقبال أن هذا الدليل ليس خيرًا من سابقه؛ لأنه يعتمد على استقراء وتقصي المعلول للوصول منه إلى نوع علته، ويستنتج من النظر في العلة نوعًا من القصد والتوافق في

(١) تجديد الفكر الديني

الطبيعة، ويستخرج من ذلك وجود موجود عالم لنفسه لا نهاية لعلمه ولا لقدرته، وخير ما في هذا الدليل أنه يزودنا بأن هناك مخترعًا خارجًا عن الكون فقط؛ لكنه لا يوصلنا إلى وجود خالق للمادة غير معاند لحكمته ولا لقدرته. وانتقد هذا الدليل .

٣- **الدليل الوجودي.** ويلتقط إقبال خطوات هذا الدليل من فلسفة كانط، ويلخصه في أن خصائص الموجود وطبيعته التي يتصف بها وتدخل في مفهومه وبيان ماهيته التي يعرف بها تدل على أن هذه الصفة تصدق على هذا الموجود، وتؤكد وجوبها له ووجوب وجودها فيه، ووجوب الوجود داخل في ماهية الله، وعلى هذا يمكن بحق أن نؤكد صفة وجوب الوجود لله، وأن الله موجود[١]. ويشرح إقبال هذا الدليل بشيء من التفصيل؛ ليصل في النهاية إلى إثبات أن دليل الغائية والدليل الوجودي يمثلان في النهاية وجهان لشيء واحد، هو أن الوجود الإنساني يدل على أن الفكر والوجود شيء واحد، ولا يتضح ذلك إلا إذا فحصنا التجربة الدينية فحصًا دقيقًا على هدي القرآن الذي يعتبر التجربة الظاهرة (الحسية) والتجربة الباطنة (الشعورية) آية دالة على حقيقة واقعية يصفها القرآن بأنها (الأول والآخر والظاهر والباطن) ويعتبر إقبال أن التجربة الدينية (الباطنية) مصدرًا من مصادر المعرفة في مقابل التجربة الظاهرة؛ ذلك بان الشعور ظاهرة نفسية تصاحب فعل المادة في الإنسان، وتصاحب فعل الإنسان في المادة، فهي نشاط مستقل برأسه لا يمكن إنكاره؛ لأن إنكار الشعور النفسي في التجربة إنكار لحقيقة كل معرفة سواء جاءت هذه المعرفة من الظاهر أو من الباطن؛ ذلك أن المعرفة في حقيقتها – كما يراها إقبال – ليست إلا تعبيرًا منظمًا للشعور، ومن ثم فإن الشعور عنده نوع من مبدأ الحياة الروحي الذي ليس بمادة[٢]. وإنعام النظر في حياتنا الشعورية ومحاولة التعمق في التجربة الشعورية لكل منا يظهر لنا أن وراء التجربة الظاهرة والباطنة (الوجود الحسي والوجداني) توجد ديمومة حقة، والذات الأولى توجد في ديمومة حقة ينقطع فيه التغير أو تصور التغير عن أن تكون تعاقبًا لأحوال متخالفة، وتكشف الذات صفاتها الحقة باعتبارها خلقًا مستمرًا ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٥] ، ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥][٣].

ولقد أخذ المتكلمون بدليل الجوهر الفرد، رافضين مذهب أرسطو في الخلق الذي يعتبر أن

(١) تجديد الفكر الديني ص ٣٦-٢٨.
(٢) تجديد الفكر الديني ص ٥١.
(٣) السابق.

العالم قار وثابت، ويشرح الدليل، فيقول: إن العالم يتألف من جواهر وأعراض، وهي متناهية الصغر، بحيث لا تقبل القسمة، ولذلك سموها الجزء الذي لا يتجزأ، وخلق الله للجواهر مستمر لا ينقطع، وبذلك إن عدد الجواهر غير متناهٍ ولا ينقطع، ففي كل لحظة يخلق جواهر جديدة، وهكذا يصبح العالم في نمو مستمر، كما قال تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ١].

ولابد من التفرقة بين ماهية الجوهر ووجود الجوهر؛ لأن وجود الجوهر عرض يلحقه الله بالجوهر، وقبل أن يلحقه العرض يظل وجود الجوهر كما لو كان كامنًا في قدرة الله الخالقة.

وليس وجود الله عنده إلا تجلي القدرة الإلهية للعيان في مقدوراتها، والجوهر عنده ليس جسمًا ولا جرمًا مستقلًا بنفسه كما يعرفه المتكلمون، وإنما هو كائن ذو طبيعة خاصة لا يشغل مكانًا ولا حيزًا إلا إذا اقترنت به الأعراض، فيتحول من حال الوجود بالقوة إلى حال الوجود بالفعل. وهذا بناءً على تفرقة إقبال بين ماهية الجوهر ووجوده. هذه التفرقة جعلته يأخذ على المتكلمين إخفاقهم في تفسير حركة الجوهر من نقطة البدء إلى نقطة النهاية، مما اضطر «النظام» إلى القول بالطفرة في تفسيره لحركة الجوهر. ومن هنا فإن إقبال يرى ضرورة تقديم المنهج القرآني بديلًا عن منهج الفلاسفة والمتكلمين في تفسيرهم للخلق والاستدلال على وجود الخالق.

يتمثل المنهج القرآني في إشارات القرآن الكريم المتكررة بالنظر في عالم الشهادة تكليفًا شرعيًّا للعقل المسلم بأن يجعل من عالم الشهادة المحسوس منه والمعقول مصدرًا للمعرفة اليقينية التي ينطلق منها بشكل مباشر لإثبات الخالق وتجليات أسمائه وصفاته. وفي نفس الوقت يجعل من هذا العالم موضوعًا للعلم والمعرفة، فيكتشف قوانينه، ويتعرف على علاقات الظواهر بعضها ببعض؛ ليستطيع أن يقوم بوظيفة التعمير، ومن ثَمَّ القيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض عن طريق تسخير العالم لصالح الإنسان وإعمال قوانين الله وكلماته الكونية في الإفادة من هذا العالم تعميرًا وتسخيرًا تحقيقًا لوظيفة الاستخلاف. وهذا هو عين النهضة التي يدعو إليها محمد إقبال؛ حيث يقول: والحق أن القرآن الكريم يجعل النظر في النفس والآفاق مصدرًا أساسيًّا للمعرفة. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالذات الإلهية ترينا آياتها في أنفسنا وفي العالم الخارجي على سواء؛ ولهذا وجب على الإنسان أن يحكم كل ناحية من نواحي التجربة في إفادة العلم[1].

(١) تجديد الفكر الديني ص١٤٥.

وهذه الآية وغيرها كثير في القرآن الكريم تمثل دعوة صريحة من القرآن إلى المسلمين أن يتخذوا من عالم الشهادة مصدرًا للوصول إلى إثبات الخالق لما فيه من مظاهر الحكمة والإتقان والتغير والتحول من حال إلى حال، وهذا في حد ذاته يعتبره إقبال دعوة إلى رفض المنهج اليوناني؛ لأنه يتعارض مع روح القرآن الكريم، وللأسف الشديد فإن مفكري الإسلام – كما يرى إقبال – قد بهرهم المنهج اليوناني في أول أمرهم، ولم يفطنوا إلى مناهضته لروح القرآن ومعارضته لمنهجه؛ ذلك أن المنهج اليوناني يقوم على النظر العقلي المجرد والتأمل البعيد عن الواقع، بينما يقوم المنهج القرآني على التجربة والواقع المشاهد مبتدأً من عالم الشهادة صعودًا إلى عالم العقل والتأمل واستنتاج النتائج. وهذا هو عين المنهج الاستقرائي القائم على جمع المعلومات وتمحيصها والوصول منها إلى صيغة القانون العام الذي يفسر الواقع وينبئنا بالمستقبل. وهذا المنهج لا يختلف حوله العقلاء لأن النتيجة مشاهدة محسوسة لارتباطها بالواقع المشاهد، فلا مجال فيها للجدل، بخلاف المنهج اليوناني المؤسس على النظر التجريدي البعيد عن الواقع الذي آثار الخلاف وفرَّق شمل الأمة.

يقول إقبال: لقد أقبلوا على فهم القرآن في ضوء الفلسفة اليونانية، وكان لابد من إخفاقهم في هذا السبيل؛ لأن روح القرآن تتجلي فيها النظرة الواقعية على حين امتازت الفلسفة اليونانية بالتفكير النظري المجرد وإغفال الواقع المحسوس... ثم جاءت بعد ذلك ثقافة إسلامية رافضة لهذا المنهج اليوناني على يد الغزالي في «تهافت الفلاسفة» وابن تيمية في «نقض المنطق»، وصرح الغزالي في «المنقذ من الضلال» بأن الشك ينبغي أن يكون أول خطوات البحث عن اليقين كما صرح ابن تيمية في «نقض المنطق» بأن منطق أرسطو لا يستفيد منه الذكي ولا يستضر بجهله الغبي، ودعا إلى المنهج التجريبي كخطوة أولى في تأسيس العلم اليقيني، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم. وابن حزم في «التقريب لحد المنطق» يؤكد على المعرفة الحسية، ويجعل الحس أصلاً من أصول المعرفة التي تقوم عليها التجربة. ويقول إقبال: هكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم، وأصله، وليس النظر أو التفكير المجرد ... فالزعم بأن أوربا هي التي استحدثت المنهج التجريبي زعم خاطئ[1].

ومن الجدير بالذكر هنا أننا نجد إقبال حريصًا كل الحرص على ربط هذا المنهج التجريبي بروح القرآن الكريم الذي يجعل الواقع المحسوس والمشاهدات الحسية أصلًا للمعرفة وتأسيسًا لليقين.

(١) التجديد في الفكر الديني ص١٤٨.

لقد حجب انشغال المسلمين بالمنهج اليوناني أنظارهم عن الاهتمام بالمنهج القرآني فترة طويلة من الزمن، وحجب أنظار المفكرين عن فهم روح القرآن، ووقف حائلًا بين المزاج العربي العملي وبين إثبات وجوده واستقلاله خلال قرنين من الزمن[1].

والقرآن الكريم يجعل المعرفة بالمحسوس منطلقًا وأساسًا للانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس بطريقة سهلة وميسورة، يقول تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

٤- العلم والوحدة الطريق إلى النهضة:

١- ينطلق إقبال في منهجه لتجديد الفكر الإسلامي من مبدأ مبني على العلم والمنهج العلمي في النظر إلى الكون بدء ونهاية واكتشافًا لقوانينه حتى نستطيع أن ننعم المسلمون بخيراته تعميرًا وتسخيرًا واستخلافًا.

٢- وأن يكون هذا التوجه العلمي من منطلق أن طلب هذا العلم فريضة دينية، وأن ممارسته عبادة وتسبيح لله، وأن عالم الكيمياء والفيزياء والطبيب والفلكي كل في مجال تخصصه يمارس عبادة شرعية كما يمارس القائم في محراب المسجد صلاته ركوعًا وسجودًا وتسبيحًا لله. وهذا أمر قرآني ودعوة ربانية.

٣- تجديد النظرة الدينية لفقه التعبد لله؛ ذلك أن التعبد ليس قاصرًا على ممارسة الشعائر المعروفة فقط من صلاة وصيام. فإن التعبد لله ليسع مفهومه ليشمل التقرب إلى الله بالتأمل في كونه والنظر في آياته. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

٤- الانفتاح على الحضارات المختلفة نأخذ منها المفيد لنا دينًا ودنيًا فإن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

٥- وحدة الصف الإسلامي، فإن المسلمين دينهم واحد، وشعائرهم واحدة، وغاياتهم واحدة، ومع ذلك فلا يجمعهم جامع لا سياسيًا ولا ثقافيًا، ولا غايتهم واحدة، وهذه الفرقة جعلتهم غنيمة في يد أعدائهم، يضرب بعضهم رقاب بعض، ولا سبيل إلى نهضة الأمة إلا بالعلم والوحدة.

(١) تجديد الفكر الديني ص١٥.

٦- والدولة في نظر الإسلام هي محاولة تبذل لتحويل مبادئ الحرية والمساواة والاتحاد إلى واقع تعيشه الجماعة[١]. لقد جسد إقبال أسباب تخلف المسلمين في التشرذم والفرقة والاستبداد السياسي الذي صرف همة العلماء عن الفهم، ثم إن غياب المسلمين عن المنهج القرآني في الاهتمام بالعلوم الكونية المتعلقة بعالم الشهادة جعلهم منصرفين عن الإفادة بما فيه من خيرات دنيوية وآيات دينية، واكتفوا في ذلك بالنظر في قضايا الغيب التي لم يكن فهم القرآن بالبحث فيها أو وضعها موضع النظر العقلي المجرد عن دليله من الواقع المشاهد. وهذا الأمر كان أحد مثارات الخلاف بين جميع الفرق الإسلامية منذ نشأتها إلى اليوم، ولا مخرج لهم من هذا الشتات إلا بالعودة إلى روح القرآن ومنهجه إلى عقيدة بلا مذاهب خالية من التعصب والتطرف.

٧- إن الاجتهاد فريضة حتمية في حركة الفقه الإسلامي وتطوره حتى يتمشى مع أحداث العصر؛ وذلك في الالتزام بالضوابط الشرعية التي نحرص على جلب المصلحة ودرء المفسدة للمجتمع أفراد وجماعات.

هذه كلمات موجزة وسريعة عن معالم النهوض في مشروع إقبال تجديد الفكر الديني اقتضها ظروف المؤتمر، ونسأل الله أن يوفق القائمين عليها.

(١) التجديد في الفكر الديني ص١٧٨.